مشاهدات وملاحظات

للدكتور أحمد ضيف

الأستاذ بالجامعة المصرية

ربما كان المصرى من أشد الناس نقدا لبلده وقومه ، وأكثرهم دعاية لنشر عيوبه وعيوب أهله ، حتى لقد يحسب ذلك من المسائل العادية التى لا يخلو منها مجلس من مجالسنا ولا مسامرة من مسامراتنا . بل أصبحنا لا نرى فينا غير عيوب منبثة فى عاداتنا وأخلاقنا ونظمنا الاجتماعية : فى الأسر وفى المجتمعات ، وفى البيوت والشوارع ، وفى الجد والهزل ، وفى ثقافتنا وتربيتنا العقلية والعامية والنظامية وفى كل شىء يصدر عنا أو يحيط بنا . وقد عرف المصرى بهذا العقل التهكمى الذى يقلب الجد هزلا والهزل جدا لرغبته أو لميله الى التسلية وبث السرور فى نفسه ليدفع عنها ما بها من آلام وسأم . وكان ذلك أكثر ما يكون انتشاره بين العامة ليقطعون به الوقت لكثرة ما لديهم من فراغ أو لكثرة ما يعتورهم من ملل .

وقد سرت عدوى هذا الخلق الى الخاصة منا بشكل جدى ، الغرض منه توجيه النظر الى ما فينا من عيوب اجتماعية للعمل على إصلاحها وأصبحنا نحن المتعلمين أكثر الناس تحدثا عن عيوبنا فى مجالسنا ومجتمعاتنا .

ومن الغريب أنك تسمع كل إنسان يتألم مما يراه ذائعا من هذه العادات التى يستنكرها هو ويرمى غيره بالخمول والتقصير . ولا نكاد نجد ثمرة لهذا الروح النقدى الذى صار عادة لنا الآن غير كثرة الأحاديث وإعادة ما نقوله فى كل مجلس ومجتمع وكأنما ينتظر كل منا أن يعمل غيره على إصلاح هذه العيوب ، أو يضع تبعة ذلك على أولى الأمر ويتكل عليهم كل الاتكال .

ولكن برغم ذلك نرى حركات اجتماعية تدعو الى العمل ونرى جماعات تنظم وتعمل على إصلاح بعض العيوب الشائعة فينا ، غير أن أعمالها تسير ببطء شديد .

لذلك نرى مظاهر هذه العيوب لا تتغير فى جملتها عما كانت عليه من سنوات فى جمهور الشعب . على حين أننا نرى الاصلاح يبدو فى بعض الأسر والأفراد الذين خرجوا من تلك الأنظمة القديمة سواء أكان ذلك فى نظام الأسر كالمسكن والمأكل والمشرب ، أم فى نظام الأفراد فى هيئاتهم وتغيير عاداتهم ، وهذا يدل على ذلك الخلق الكامن فينا ودو اشتغال الانسان بنفسه والعناية بها قبل المجموع . وأننا نتألم مما نراه فى مظاهرنا الخارجية ومظاهر الشعب فى جملته ، وذلك لأن مظاهر أمة من الأمم هى التى تدل على أخلاقها وعلى قوة التفكير الكامنة فيها وتدل بخاصة على ما لها من كرامة واحترام فى نفوس غيرها .

فلو أنك شاهدت رجلا قذرا عرفت أنه لا يعنى بنفسه ، ودعاك ذلك الى عدم احترامك إياه ، وهذا ما نشاهده منبثا فى جمهور الشعب المصرى . سر حيث شئت فى أى طريق من طرق القاهرة وفى أى حى من أحيائها العظيمة أو الحقيرة وانظر الى أفراد الشعب فإنه لا يقع نظرك إلا على شىء لا ترضاه لنفسك ولا لقومك ، ولعلنا اعتدنا هذه المناظر وهذه العادات فصرنا لا نشمئز منها كثيرا .

ولكن الذى يرى ذلك فى صورة مكبرة هو الأجنبى الذى يجىء لزيارة بلادنا . يرى أمة متفرقة فى زيها وعاداتها وثقافتها . يرى الأمة طبقات مختلفة فى كل شىء وهذا الاختلاف ليس محصورا فى اختلاف الطبقات كالعامة والخاصة وكطبقة التجار وطبقة العمال ، بل يجد أفراد كل طبقة يختلف بعضهم عن بعض . فطبقة العمال أو الباعة المتجولين يختلف بعضهم عن بعض فى ملابسهم وعاداتهم ، فهذا يلبس لباسا غير ذاك ، ويتكلم بلهجة غير ما يتكلم به زميله ولكن يجمعهم شىء واحد هو عدم النظام وقذارة هيئتهم وسوء حالتهم فى ملابسهم وما كلهم ومسكنهم . وهذا يدل على أنه ليس لنا شعار قومى ولا وحدة قومية .

فبهذه المظاهر يحكم علينا غيرنا ، يحكم على عقليتنا وعلى تفكيرنا وعلى ذوقنا وعلى عقائدنا بما يراه فى ملبسنا ومأكلنا ومسكننا وحركاتنا فى القيام والجلوس وأحاديثنا فى المجالس والمحافل ومعاملاتنا لأنفسنا أو لغيرنا مما يخرج عن مقياس الذوق المعروف لدى الأمم المتحضرة ، ويدل على أننا لا نزال فى سذاجة فى كل شأن من شؤون حياتنا ، بل على إننا فى وقوف بل فى تقهقر رغم الأيام التى تمر بنا والدروس التى نتلقاها ورغم ما نشاهده لدى الأمم الأخرى التى نراها ونعاشرها .

وذلك لأن مظاهرنا تدعو الى الريبة فى صلاحية تربيتنا وفى إدراكنا للحياة وللحضارة ، والمثل يقول : " الكتاب يعرف من عنوانه " . والحق أنك اذا رأيت رجلا لا يعنى بملبسه ولا بشكله ولا بنظام عيشته حكمت بأن عقله ناقص وذوقه ناقص وادراكه للحياة ومعانيها ناقص أيضا .

فالذى يجب أن ندعو اليه قبل كل شيء هو تنظيم حياتنا الاجتماعية أو إصلاح مظاهرنا فى الخارج والداخل : فى ملابسنا ومآكلنا ومساكننا ، وفى آدابنا فى المحادثة ، وفى بيعنا وشرائنا وفى إفهام الشعب أو العامة أن الأمة لاتحترم إلا اذا كان مظهرها يدل على احترامها لنفسها .

تقدم إلىّ بالرجاء أحد اصدقائى النزلاء بأن أرافق بعض أقاربه الذين جاءوا من باريس لزيارة بعض الأحياء الوطنية فى القاهرة ، فرافقت هؤلاء الى حى الغورية والأزهر . واخترقنا حى التربيعة ، وكان من بينهم شيخ ممتلئ الجسم حاد النظر ، حاد الإدراك ، لايكاد يمر بشيء إلا حقق النظر فيه وإدرك خفيه ، ومعه زوجته وهى شيخة أيضا حسنة الزى دقيقة الادراك يظهر أنها تحب الجمال فى كل شيء .

مررنا برجل يدق بعض التوابل فى هاون من الحجر الصوان ، وهو رث الثياب يحمل على جسمه جلبابا ممزقا يظهر أعضاءه النحيفة ، حافى القدمين يتصبب عرقا ، يحمل مدقا من الحديد الثقيل وهو يرفعه ويخفضه ، وكلما رفعه أوخفضه شهق شهقة كأنها شهقة الموت والعرق يسيل من كل جسمه .

فنظرت السيدة اليه ثم رجعت النظر الىّ وقالت : ماذا يعمل هذا الرجل . قلت : يدق بعض التوابل . فقالت ؟ ياله من بائس قذر .

وصعدت معهما فى سلم قبة الغورى ليريا باب القبة العجيب الصنع ، فلما وصلنا الى مصعد الباب رأيت الشيخ وقف قليلا وأخذ يقدم رجلا ويؤخر أخرى . فقلت له : ماذا؟ فلم يجبنى وانما نظر إلى قدمه فى تردد وحيرة ، فنظرت معه اليها وإذا حذاؤه قد انغمس فى..... فأحمر وجهى خجلا منه عند ماسمعته يقول لى : أليس بهذا المكان خادم يزيل مابهذا الباب الجميل من أوساخ ؟ فالتفت ورائى وقلت مشيرا إلى مسجد الغورى من الناحية الأخرى : وهذا أيضا باب جميل . فالتفت وضحك وعرف أنى فررت من الاجابة على سؤاله .

ثم أليس من المخجل لأمة من الأمم أن تغص شوارعها بل مدنها بأبناء السبيل القذرين المشوهين الذين لايفترقون عن الحيوان إلا بالكلام ؟

وأليس من المخجل لنا أن نرى فى كل مكان أقذارا وأوساخا وأناسا أزياؤهم منوعة بشعة المنظر ، تدل على الفرقة بين أفراد الجمهور وعلى أنه ليس لنا طابع قومى فى شيء ؟

وأليس من المخجل أن نرى بائع الطعام المتجول فى الطرق أمام أعيننا وأعين غيرنا قذرا ، حافى القدمين تجتمع جيوش الذباب على مايحمل فوق رأسه من خبز ولحم وغيره مما تنفر منه النفس ؟

وأليس من المعيب أن نرى بائع الشراب على هذه الحال المؤلمة التى تحملنا على الخجل من أنفسنا ؟ وأليس من الشنار لأمة سائرة فى سبيل الحضارة مثلنا أن نرى بائعى الحلوى والفاكهة جالسين فى الطرق على أفاريزها فى حالة تدل على عدم العناية بأنفسهم وبما يقدمون للجمهور من مأكل ومشرب وقد تراكمت الأقذار والاتربة والذباب وهم جالسون مطمئنون فوق الثرى كأنهم فى بيوتهم أوفى أمكنتهم الخاصة .

دع هذا وذاك ومر بباب الخلق وانظر الى الشعب هناك من جالس أو واقف ينتظر الترام ثم عرج على دار محكمة الاستئناف وادخل فى ساحتها وقل لى ماذا ترى ؟

ترى رجالا كبارا وصغارا من أصحاب القضايا القرويين جالسين على سلم المحكمة يبصقون حولهم ويتمخطون، ثم تقدم خطوة أو خطوتين وادخل ساحة هذه الدار ترى نساء جالسات متربعات على بلاط البهو وحولهن أولادهن يتبولون ويفعلون أكثر ذلك، والداخل أو الخارج ينظر الى آثار هذه الأعمال ، والشرطى واقف على رءوس الجالسين لا ينبس بكلمة ؟

المنظر مؤلم والناس غافلون لاهون لهم عيون ولكن لا يرون بها ، وأنوف ولكن لا يشمون بها ، فمن لهذه الحال السيئة غير وزارة الشؤون الاجتماعية تجرد عليها حملة قوية من الدعاة والوعاظ والمرشدين والجنود الاجتماعيين يبصرون الناس بمآتيهم فيه ويلفتونهم الى ما ينبغى أن يكونوا عليه ، ويظلون بهم فى المساجد والمجتمعات والشوارع ينصحونهم ويعظونهم حتى يغيروا ما بهم ويستبدلوا بحالتهم حالة أصون لكرامتهم الانسانية ولسمعتهم القومية . وليس ذلك بعزيز على الوزارة الناشئة التى نرجو لها كل الخير والتوفيق .

أحمد ضيف